بين خروفين (١)

« اجتمع ليلة الأضحَىَ خروفان من أضاحي العيد ، فتكلَّما ؛ فماذا يقولان ؟».

هذا هو الموضوعُ الذي استخرجه لي أصغرُ أولادي (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألني أن أكتب فيه للرِّسالة ، وهو أصغر قرَّائها سنّاً ، ترفُّ عليه النَّسمةُ الثَّالثة عشرة من ربيع حياته (٢) ، بارك الله له فيها حاضرةً ، ومُقْبلةً .

ولأستاذنا هذا كلمةٌ هي شعارُه الخاصُّ به في الحياة ، يحفظُها لتحفظَه ، فلا يميل عن مَدْرَجَتها ، ولا يَخرج من معناها ؛ وهي هذه الكلمةُ العربية : « كالفرسِ الكريمِ في مَيعَةِ حُضْرِه (٣) ، كلَّما ذهب منه شوْطٌ جاء شَوْطٌ » . فهو يعلم من هذا : أنَّ كرم الأصل في كرم الفعل ، ولا يغني شيءٌ منهما عن شيء ؛ وأنَّ الدَّمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعفَ القوَّة بطبيعته ، عظيمَ الأملِ بهذه القوَّة المضاعَفة ، نزَّاعاً إلى السَّبق بمقدار أمله العظيم ، مترفعاً عن الضَّعف والهُوَيْنى (٤) بهذا النُّزوع ، متميِّزاً في نبوغ عمله ، وإبداعِه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمِّها ، وأحسنِها ؛ فمن ثمَّ لا يَرمي الحرُّ الكريم إلا أن يبلغَ الأمد الأبعدَ في كلِّ ما يحاوله ، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطَّاقة ، ومبلغ القدرة ، مستمِدّاً قوَّةً بعد قوَّةٍ ، محقِّقاً السِّحرَ القادر الَّذي في نفسه ، متلقِّياً منه وسائلَ الإعجاز في أعماله ، مُرسِلاً في نبوغه من توهُّج دمه أضواءً كأضواء النَّجم ، تُثْبِتُ لكلِّ ذي عينين : أنَّه النَّجم لا شيء آخر .

ولمَّا قدَّم إليَّ (الأستاذ) موضوعَه في هذا الوزن المدرسيِّ ـ وأظنُّه قد نزعتْه حاجةٌ مدرسيَّةٌ إليه ـ قلت : حُبّاً ، وكرامةً . وهاأنذا أكتبه منبعثاً فيه « كالفرس الكريم في مَيعة حُضْره » . . ولعلَّ الأستاذ حين يقرؤه لا يُنَوِّر فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر . . . !

* * *

---

(١) انظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) كان ذلك في سنة ١٩٣٤ . (س) .

(٣) هذا كما يُقال بالعامية : في عز جريه . (ع) .

(٤) « الهوينى » : الاتئاد في المشي .

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضاحي في دارنا : أمَّا أحدهما ؛ فكَبْشٌ أقرَنُ(١) ، يحمل على رأسه من قرنيه العظيمين شجرة السِّنين ، وقد انتهى سِمَنُه حتَّى ضاق جِلده بلحمه ، وسَحَّ(٢) بدنه بالشَّحم سَحّاً ، فإذا تحرَّك خِلتَه سحابةً يضطرب بعضُها في بعضٍ ، ويهتزُّ شيءٌ منها في شيءٍ ؛ وله وافِرةٌ(٣) يجرُّها خلفه جرّاً ، فإذا رأيتَها من بعيدٍ حسبتَها حَملاً يتبعُ أباه . وهو أصْوَفُ قد سبَغَ(٤) صوفه واستكشَفَ ، وتراكم عليه . فإذا مشى تبختَرَ فيه تبختر الغانية(٥) في حُلَّتها ، كأنَّما يشعر مثل شعورها : أنَّه يلبَسُ مَسَرَّاتِ جسمِه ، لا ثوبَ جسمه ؛ وهو من اجتماع قوَّته ، وجَبروتِه أشبهُ بالقلعة ، يعلوها من هامته كالبُرج الحربيِّ فيه مدفعان بارزان ؛ وتراه أبداً مُصعِّراً خدَّه(٦) كأنَّه أميرٌ من الأبطال ، إذا جلس حيث كان ؛ شعر : أنَّه جالسٌ في أمره ونهيه ، لا يَخرج أحدٌ من نهيه ، ولا أمره .

وأمَّا الآخر ؛ فهو جَذَعٌ في رأس الحوْل الأوَّلِ مِنْ مَوْلده ، لم يُدرِك بعدُ أن يُضَحَّى ، ولكن جيء به للقَرَمِ إلى لحمه الغَضِّ ؛ فالأوَّل أُضْحِيةٌ وهذا أكولةٌ ؛ وذاك يُتصدَّقُ بلحمه كلِّه على الفقراء ، وهذا يُتصدَّق بثلثيه ويبقى الثُّلثُ طعاماً لأهل الدار .

وكان في لِينه ، وترجرُجِه ، وظَرفِ تكوينه ، ومَرَح طبعه ، كأنَّما يصوِّر لك المرأة آنسةً ، رقيقةً ، متودِّدةً ، أمَّا ذاك الضَّخم العاتي المتجبِّر الشَّامخ ؛ فهو صورةُ الرَّجل الوحشيِّ ، أخرجته الغابة ، الَّتي تخرج الأسدَ ، والحيَّة ، وجذوعَ الدَّوْحة(٧) الضَّخمة ، وجعلت فيه من كلِّ شيءٍ منها شيئاً يُخافُ ، ويُتَّقى .

وكان الجذعُ يَثْغُو(٨) ، لا ينقطع ثغاؤه ؛ فقد أُخِذَ من قطيعه انتزاعاً ، فأحسَّ

---

(١) « أقرن » : ذو قَرْن .

(٢) « سحّ » : سال .

(٣) ألية عظيمة ، ويقال : كبش أليان ؛ إذا كان عظيم الألية . (ع)

(٤) « سبغ » : تمَّ ، وطال .

(٥) « الغانية » : المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة .

(٦) « مصعراً خده » : صعَّر خده : أماله إعراضاً ، وتكبراً ، وعجْباً .

(٧) « الدوحة » : واحدة الدوح ؛ الشجر العظيم الممتد الفروع .

(٨) « يثغو » : ثَغَتِ الشاةُ : صوَّتت . والثغاء : صوت الغنم والظباء وغيرها عند الولادة .

الوحشة ، وتنبَّهَتْ فيه غريزة الخوف من الذِّئب ، فزادته إلى الوحشة قلقاً ، واضطراباً ، وكان لا يستطيع أن يَنْفلت ؛ فهو كأنَّما يهرب في الصَّوت ، ويعدو فيه عذواً .

أمَّا الكبش ؛ فيرى مثلَ هذا مَسَبةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذ كان في القطيع كان كبشَه ، وحاميَه ، والمُقدَّمَ فيه ؛ فيكونُ القطيعُ معه ، وفي كنفِه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع ، فإذا فقد جماعته ؛ لم يكن في منزلة المنتظِر أن يَلحق بغيره ليحتميَ به ، فيقلقَ ، ويضطربَ ؛ ولكنَّه في منزلة المرتقِب أن يَلحق به غيرُه طلباً لحمايته ، وذماره ؛ فهو ساكنٌ رابط الجأش مغتبطُ النَّفس ؛ كأنَّما يتصدَّق بالانتظار .

* * *

فلمَّا أدبر النَّهارُ ، وأقبل اللَّيلُ ، جيء للخروفين بالكلأ من هذا البرسيم يعتلفانِه ، فأحسَّ الكبشُ : أنَّ في الكلأ شيئاً لم يدرِ ما هو ، وانقبضت نفسُه لِما كانت تبسطُ إليه من قبل ، وعرَتْه[1] كآبةٌ من روحه ، كأنَّما أدركتْ هذه الرُّوحُ : أنَّه آخرُ رزقِه على الأرض ، فانكسر ، وظهر على وجهه معنى الذَّبح قبل أن يُذبح ، وعاف أن يَطعَم ، ورجَع كأوَّل فِطامه عن أمِّه : لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناولُ من أكله إلا أدنى تناوُل .

وكأنَّما جَثم الظَّلام على شحمه ، ولحمه ؛ فإنَّه متى ثَقُل الهمُّ على نفسٍ من الأنفس ؛ ثَقُل على ساعتها الَّتي تكون فيها ، فتطولُ كآبتها ، ويطولُ وقتُها جميعاً ؛ فأراد الكبشُ أن يتفرَّج ممَّا به ، ويُنفِّس عن صدره شيئاً ، وكان الصَّغير قد أنِس إلى المكان ، والظلمة ، وأقبل يعتلفُ ، ويَخضِمُ[2] الكلأ ، فقال له الكبش : أراك فارهاً يابن أخي ! كأنَّك لا تجد ما أجد ، إنِّي ـ والله ! ـ أعلم علماً لا تعلمه ، وإنِّي لأحسُّ أنَّ القدرَ طريقُه علينا في هذه اللَّيلة ، فهو مُصْبِحُنا ما من ذلك بُدٌّ .

قال الصَّغير : أتعني : الذِّئبَ ؟

قال : ليته هو ! فأنا لك به لو أنَّه الذِّئب ؛ إنَّ صوفي هذا دِرْع من أظافره ، وهو

(١) « عرته » : أصابته .

(٢) « يخضم » : خضم الطعامَ : أكله بأقصى أضراسه ، أو بملء فمه .

كالشَّبكة يَنْشَبُ فيها الظُّفر ولا يتخلَّص ، ومن قرنيَّ هذين تُرْسٌ ، ورُمح ، فأنا واثقٌ من إحراز نفسي في قتله ، ومَن أحرز نفسه من عدوِّه ؛ فذاك قتلُ عدوِّه ، فإن لم يقتله ؛ فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فنٌّ من القتل ؛ وهذا القرن الملتفُّ الأعقدُ المذرَّبُ[١] كالسِّنان ، لا يكاد يراه الذِّئب ؛ حتَّى يعلم : أنَّه حاطِمَةُ عظامِه ، فيَحْدُثُ له من الفزع ما تنحلُّ به قوَّتُه ، فما يُواثبُني إلا متخاذِلاً ، ولا يُقْدِمُ عليَّ إلا توَهُّم الذِّئبيَّة للخروفيَّة ، فإنَّ أساسَ القوَّة والضَّعف كليهما في السُّوسِ ، والطَّبيعة ، غير أنَّه لا يعلم أنِّي خرجت من الخروفيَّة إلى الجاموسيَّة . . . ! فما يُعَلمه ذلك إلا بَقْرُ بطنِه[٢] ، أو التَّطويح به من فوق هذا القَرن ، أقذفُه قذفةً عاليةً تُلقيه من حالقٍ ، فتدقُّ عظامه ، وتحطِّم قوائمه !

قال الصَّغير : فماذا تخشى بعد الذِّئب ؟ إن كانت العصا ؛ فهي إنَّما تضرب منك الصُّوفَ لا الظَّهر .

قال الكبش : ويحك ! وأيُّ خروفٍ يخشى العصا ؟ وهي إنَّما تكون عصا من يَعْلِفُهُ ، ويَرعاه ، فهي تنزلُ عليه كما تنزلُ على ابن آدم أقدارُ ربِّه ، لا حَطْماً ولكن تأديباً ، أو إرشاداً ، أو تهويلاً ؛ ومِنْ قبْلها النِّعمة ، وتكون معها النِّعمة ، وتجيء بعدها النِّعمة ؛ أفبلغ الكفرُ منَّا ما يبلغ كفرُ الإنسانِ بنعمة ربِّه : إذا أنعم عليه ؛ أعرضَ ، ونأى بجانبه ، وإذا مسَّه الشَّر ؛ انطلق ذا صُراخٍ عريض ؟

وكيف تراني ويحك !ـ أخشى الذِّئب ، أو العصا ، وأنا من سُلالة الكبش الأسديِّ؟

قال الصَّغير : وما الكبشُ الأسدي ؟ وكيف علمت أنَّك من نجله ، ولا علم لي أنا إلا هذا الكلأُ ، والعلفُ ، والماءُ ، والمراحُ[٣] ، والمَغْدى ؟

قال الكبش : لقد أدركتُ أمِّي وهي نعجةٌ قحمةٌ كبيرةٌ ، وأدركتُ معها جدَّتي ، وقد أفرَط عليها الكِبرُ ؛ حتَّى ذهب فمُها ، وأدركتُ معهما جدِّي ، وهو كبشٌ هرمٌ مُتَقَدِّدٌ ، أعجفٌ ، كأنَّه عِظامٌ مُغطاةٌ ، فعن هؤلاء أخذتُ ، ورَويتُ ، وحفظتُ .

حدَّثتني أمِّي ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إنَّ فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفِداء الَّذي فدى اللهُ به إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما السلام ، وكان كبشاً

---

(١) « المذرب » : المحدَّد .

(٢) « بَقْر بطنه » بقَر بطنَه : فتحه ، وشقَّه ، ووسَّع شَقَّه .

(٣) « المراح » : المكان الذي تأوي إليه الماشية ليلاً .

أبيضَ ، أقرنَ ، أعينَ[١] ، اسمه حَرير .

(قال) : واعلم يابن أخي أنَّ ممَّا انفردتُ أنا به من العلم ، فلم يُدركه غيري ، أنَّ جدَّنا هذا كان مكسوّاً بالحرير لا بالصُّوف ، فلذلك سمِّي : حريراً .

(قالت أمِّي) : والمحفوظُ عند علمائنا : أنَّ ذاك هو الكبشُ الذي قرَّبه هابيل حين قَتَل أخاه ، لتتمَّ البليَّة على هذه الأرض بدم الإنسان ، والحيوان معاً .

(قالوا) : فتُقُبِّل منه ، وأرسِل الكبشُ إلى الجنَّة ، فبقي يرعَى فيها حتَّى كان اليوم الَّذي همَّ فيه إبراهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النُّبوَّة ، وطاعةً لما ابتلي به من ذلك الامتحان ، وليُثبت : أنَّ المؤمن بالله إذا قوِي إيمانه ؛ لم يجزع من أمر الله ولو جرَّ السِّكين على عُنق ابنه ، وهو إنَّما يجزُّها على ابنِه ، وعلى قلبه !

(قالت) : فهذا هو فخر جنسنا كلِّه .

أمَّا فخرُ سُلالتي أنا ، فذاك ما حدَّثتني به جدَّتي ، ترويه عن أبيها ، عن جدِّها ، وذاك حين توسَّمت فيَّ مخايل[٢] البطولة ، ورَجَت أن أحفظ التَّاريخ .

قالت : إنَّ أصلنا من دِمَشق ، وإنَّه كان في هذه المدينة رجل سَبَّاع ؛ قد اتَّخذ شِبْل أسدٍ ، فربَّاه ، وراضه[٣] حتَّى كبِر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذَّى به النَّاس ، فقيل للأمير[٤] : هذا السَّبُع قد آذى النَّاس ، والخيلُ تنفِر منه ، وتجدُ من ريحه ريحَ الموت ؛ وهو ما يزال رابضاً ليله ، ونهارَه على سُدَّةٍ بالقربِ من دارك . فأمر فجاء به السَّبَّاع ، وأدخله إلى القصر ، ثمَّ أمر بخروفٍ ممَّا اتُّخِذ في مطبخه للذَّبح ، وأدخلوه إلى قاعة ، وجاء السَّبَّاع ، فأطلق الأسد عليه ، واجتمعوا يرون كيف يسطو به ، ويفترسه .

قالت جدتي : فحدَّثني أبي ، قال : حدَّثني جدُّك : أنَّ السَّبَّاع أطلقَ الأسدَ من ساجُورِه[٥] وأرسله ، فكانت المعجزة الَّتي لم يفزْ بها خروفٌ ، ولم تؤثَر قطُّ إلا عن

---

(١) « أعين » : هو الذي عَظُم سوادُ عينه في سَعَة .

(٢) « مخايل » : جمع مَخِيلة ؛ يُقال : بَدَت عليه مخايل النجابة ؛ أي : دلالتها ، ومَظِنَّتها .

(٣) « راضه » : راض المُهْرَ : ذلَّله ، وعَلَّمه السَّير .

(٤) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصَّها في كتابه (الاعتبار) . والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين أثر) وزيرُ شهاب الدين محمود . وقد تصرَّفنا في عبارة القصة . (ع) .

(٥) « الساجور » : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما . (ع) .

جدِّنا ، فإنَّه حسب الأسدَ خروفاً أجَمَّ ، لا قرون له ، ورأى دِقَّة خَصره ، وضُمورَ جنبيه ، ورأى له ذيلاً كالألية المفرغةِ الميِّتَة ، فظنَّه من مَهازيل الغنم ؛ الَّتي قتلها الجدْب ، وكان هو شَبْعان ريَّان ، فما كذَّبَ أن حَمَلَ على الأسد ، ونطحه ، فانهزم السَّبُعُ ممَّا أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدُّنا سَبُعاً قد زاده الله أسلحةً من قرنيه ، فاعتراه الخوفُ ، وأدبر لا يلوي . وطمع جدُّنا فيه فاتَّبعه ، وما زال يُطارِدُه ، وينطحه ، والأسدُ يفرُّ من وجهه ويدورُ حول البِرْكة ، والقومُ قد غلبهم الضِّحك ، والأمير ما يملك نفسَه إعجاباً ، وفخراً بجدِّنا ، فقال : هذا سبُعٌ لئيمٌ ، خذوه ، فأخرجوه ، ثمَّ اذبحوه ، ثمَّ اسلخوه . فأُخِذَ الأسدُ ، وذبح ، وأُعتِق جدُّنا من الذَّبح ، وكان لنا في تاريخ الدُّنيا ، إنسانها ، وحيوانها أثران عظيمان ، فجدُّنا الأوَّل كان فداء لابن نبيٍّ ، وجدُّنا الثَّاني كان الأسد فداءَه !

* * *

قال الصَّغير للكبش : قلتَ : الذَّبحَ ، والفِداءَ من الذَّبح ؛ فما الذَّبح ؟

قال الكبش : هذه السُّنة الجارية بعد جدِّنا الأعظم ، وهي الباقية آخر الدَّهر ؛ فينبغي لكلٍّ منَّا أن يكون فداءً لابن آدم !

قال الصَّغير : ابن آدم هذا الَّذي يخدمنا ويجتزُّ لنا الكلأ ، ويقدِّم لنا العلف ، ويمشي وراءنا ، فنسحبه إلى هنا وهاهنا . . ؟ تالله ما أظنُّ الدُّنيا إلا قد انقلبت ، أوْ لا ، فأنت يا أخا جدِّي ! قد كبِرتَ ، وخَرِفْتَ !

قال الكبش : ويحكَ يا أبله ! متى تتحلَّلُ هذه العقدة الَّتي في عقلك ؟ إنَّك لو علمتَ ما أعلمُ ؛ لما اطمأنَّت بك الأرض ، ولرجعتَ من القلق ، والاضطراب كحبَّة القمح في غِربالٍ يهتزُّ ، وينتفض !

قال الصَّغير : أتعني ذلك الغربال ، وذلك القمح ، وما كان في القرية ؛ إذ تناولت ربَّة الدَّار غربالها تنفُضُ به قمحها ، فغافلتُها ونطحتُ الغِربال فانقلب عن يدها ، وانتثر الحبُّ ، فأسرعتُ فيه التقاطاً حتَّى ملأت فمي قبلَ أن تُزيحَني المرأة عنه . . . ؟

فهزَّ الكبش رأسه فِعْل من يريد الابتسام ، ولا يستطيعه ، وقال : أرأيت حانوت القصَّاب ، ونحن نمرُّ اليوم في السُّوق ؟

قال : وما حانوت القصَّاب ؟

قال : أرأيت ذلك السَّليخ من الغنم البِيضِ المُعلَّقة في تلك المَعاليق ، لا جلد عليها ، ولا صوف ، وليس لها أرؤسٌ ، ولا قوائم ؟

قال الصَّغير : وما ذاك السَّليخ ؟ إنَّه إنْ صحَّ ما حدَّثتني به عن أُمِّك ، فهذه غنم الجنَّة ، تبيت ترعى هناك ، ثمَّ تجيءُ إلى الأرض مع الصُّبح ، وإنِّي لمترقِّب شمسَ الغد ، لأذهبَ ، فأراها وأملأ عينيَّ منها .

قال : اسمع أيُّها الأبله ! إنَّ شمس الغد ستشعر بها من تحتِك لا مِنْ فوقك . . . ! لقد رأيت أخي مذ كنت جذعاً مثلك ، ورأيت صاحبَنا الَّذي كان يعلفُه ، ويُسمِّنُه قد أخذه ، فأضجَعه ، فجثم[1] على صدره شرّاً من الذِّئب ، وجاء بشَفْرةٍ بيضاء لامعةٍ ، فجرَّها على حلقه ، فإذا دمُه يَشْخب[2] ، وينفجر ، وجعل المسكين ينتفض ، ويَدْحَض برجله ، ثمَّ سكَن وبرَدَ ؛ فقام الرَّجل ففصل عنقه ، ثمَّ نخَس في جلده ، ونفخه حتَّى تطبَّل ، ورجع كالقربة الَّتي رأيتَها في القرية مملوءةً ماءً ، فحسبتَها أُمَّك ؛ ثم شقَّ فيه شقّاً طويلاً ؛ ثمَّ أدخل يده بين الجلد والصِّفاق[3] ؛ ثمَّ كشطه ، وسَحفَ[4] الشَّحم عن جنبيه ؛ فعاد المسكين أبيض لا جلد له ، ولا صوف عليه ، ثمَّ بقَر بطنَه ، وأخرج ما فيه ؛ ثمَّ حطَّم قوائمه ، ثمَّ شدَّه ، فعلَّقه ، فصار سليخاً كغنم الجنَّة ؛ التي زعمْت ! وهذا ـ أيُّها الأبله ـ هو الذَّبح ، والسَّلخ !

قال الصَّغير : وما الذي أحدث هذا كلَّه ؟

قال : الشَّفرة البيضاءُ الَّتي يسمُّونها السِّكِّين !

قال الصَّغير : فقد كانت الشَّفرة عند حلقه حيالَ فمه ؛ فلماذا لم ينتزعْها ، فيأكلها؟

قال الكبش : أيُّها الأبله الَّذي لا يعلمُ شيئاً ، ولا يحفظُ شيئاً ! لو كانت خضراء ؛ لأكلها !

---

(١) « جثم » : جلس .

(٢) « يشخب » : شَخَب اللبن : خرَج من الضرع مسموعاً صوته . ومنه : شَخَب الدمُ من الجُرْح .

(٣) « الصفاق » : الجِلْد الباطن الذي تحت الجلد الظاهر وجِلْد البطن .

(٤) « سحف » : كشط .

قال : وما خَطْب أن تجيءَ الشَّفرة على العنق ، أفلم يكن الحبل في عنقك أنت ، فجعلتَ تجاذِبُ فيه الرَّجل ؛ حتَّى أعييتَه ، ولولا أنِّي مشيت أمامك ؛ لما انْقَدْت له ؟

قال الكبش : ما أدري والله ! كيف أُفهِمُك : أنَّ هذا كلَّه سيجري عليك ، فستَرى أموراً تُنكرها ، فتعرف ما الذَّبح ، والسَّلخ ، ثمَّ تصير أشلاء في القُدور تُضْرَم[1] عليها النَّار ، فيأكلُك ابن آدم ، كما تأكل أنت هذا الكلأ . . !

قال الصَّغير : وماذا عليَّ أنْ يأكلني ابن آدم ؟ ألا تراني آكلُ العُشْب ، فهل سمعتَ عُوداً منه يقول : الرَّجلُ والسِّكِّين ، والذَّبح والسَّلخ . . . ؟

قال الكبش في نفسه : لَعَمْري ! إنَّ قوَّة الشَّباب في الشَّباب أقوى من حكمة الشُّيوخ في الشُّيوخ ، وما نَفْع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يُمضيه ، كرأي الشَّيخ الفاني ؛ يرى بعقله الصَّواب حين يكون جسمُه هو الخطأ مركَّباً في ضعفه غَلطةً على غلطةٍ ، لا عُضواً على عضوٍ . . ؟

وهل الرأيُ الصَّحيح للعالم الذي نعيش فيه إلا بالجسم الذي نعيش به ؟ وماجَدْوَى أن يعرف الكبيرُ حكمة الموت ، وهو من الضَّعف بحيث تنكسر نفسُه للمرض الهيِّن ، فضلاً عن المرض المُعْضِل[2] ، فضلاً عن المرض المُزْمن ، فضلاً عن الموت نفسِه ؛ وما خَطَرُ أن يجهل الشَّباب تلك الحكمة ، وهو من قوَّة النَّفس بحيث لا يبالي الموت ، فضلاً عن المرض ؟

لو أذِن الشَّابُ من الفتيان بيوم انقطاع أجله ؟ وعلم أنَّه مُصْبِحُه أو مُمْسيه ، لأمدَّته نفسه بأرواح السِّنينَ الطَّويلة ؛ حتَّى ليرى : أنَّ صبحَ الغد كأنَّما يأتي من وراء ثلاثين ، أو أربعين سنةً ؛ فما يَتَبيَّنُه إلا كالفكر المنسيِّ ، مضى عليه ثلاثون سنةً ، أو أربعون .

ولو أَذِن الشَّيخ بيوم مَصْرعه ، وأيقن أن له مهلةً إلى تمام الحول ؛ لطار به الذُّعْر ، واستفرَغه الوجَل[3] من ساعته ؛ ورأى يومه البعيدَ أقرب إليه من الصُّبح ،

---

(١) « تضرم » : تُوقَد وتُشْعَل وتلتهب .

(٢) « المرض المعضل » : هو الذي أعجز الأطباءَ أن يداووه . وداء عُضال : شديد أعيا الأطباء .

(٣) « الوجل » : الخوف والفزع .

وابتلتْه طبيعة جسمه المختلِّ بالوساوس الكثيرة تجتلبها له ، كما تجتلبُ الرياحَ صُدُوع[1] المنزل الخرب .

فذاك بالشَّباب يقبض على الزَّمن ؛ فيعيش في اليوم القصير مثلَ العام رَخِيّاً ممدوداً ؛ فهو رابطٌ جلدٌ[2] ؛ وهذا بالكِبَر يقبض الزَّمنُ عليه ، فيعيش في العام الطويل مثلَ اليوم متلاحقاً آخرُه بأوَّله ؛ فهو قلقٌ طائرٌ . ولا طبيعة للزَّمن إلا طبيعة الشُّعور به ؛ ولا حقيقة للأيَّام إلا ما تضعه النَّفسُ في الأيَّام .

* * *

ثمَّ إنَّ الكبش نظر ، فرأى الصَّغيرَ قد أخذته عينه ، واستثْقلَ نوماً ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة ! إنَّ هذا السِّرَّ هو كسرُّ النَّبات الأخضر ، لا يُقطع من ناحيةٍ إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئاً ، قائلاً على المصائب : هاأنذا . . .

فهذا الصَّغير ينام ملءَ عينيه ، والشَّفرة محدودةٌ له ؛ والذَّبح بعد ساعاتٍ قليلةٍ كأنما هو في زمنين ؛ أحدهما من نفسه ؛ فبه ينام ، وبه يلهو ، وبه يسخر من الزَّمن الآخر ، وما فيه ، وما يجلبه .

إنَّ الألم هو فهمُ الألم لا غير . فما أقبحَ عِلم العقل ؛ إذا لم يكن معه جهلُ النَّفس به ، وإنكارها إيَّاه ! حَسْبُ العلم ، والعلماء في السُّخرية بهم ، وبه هذه الحقيقة من النَّفس . أنا لو ناطحتُ كبشاً من قروم[3] الكباش ، ووقعت أفكِّر ، وأدبِّر ، وأتأمَّل ، وأعتبرُ شيئاً بشيءٍ ؛ ذهب فكري بقوَّتي ، واسترخى عَصَبي ، وتحلَّل غضبي كلُّه ، وكان العلمُ وبالاً عليَّ ، فإنَّ حاجتي حينئذٍ إلى الرُّوح ، وقُواها وأسبابها أضعافُ حاجتي إلى العلم . والرُّوح لا تعرف شيئاً اسمه الموتُ ، ولا شيئاً اسمه الوجَع ؛ إنَّما تعرف حظَّها من اليقين ، وهدوءَها بهذا الحظِّ ، واستقرارها مؤمنةً ما دامت هادئةً مستيقِنةً .

وقد واللهِ صَدَق هذا الجذَعُ الصَّغيرُ ؛ فما على أحدِنا أن يأكله الإنسان ؟ وهل

(١) « صدوع » : جمع صَدْع ، وهو الشق في الحائط .
(٢) « جَلْد » : صابر على المكروه .
(٣) « قروم » : جمع قَرْم ، وهو السيد المعظَّم .

أكْلُنا نحن هذا العُشْبَ ، وأكلُ الإنسان إيَّانا ، وأكلُ الموتِ للإنسان ـ هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة في شكلٍ من أشكالها ؟ يُشبه والله ! إن أنا احتججتُ على الذَّبح ، واغتممتُ له أن أكون كخروفٍ أحمقَ ، لا عقل له ، فظنَّ إطعامَ الإنسان إيَّاه من باب إطعامه ابنَه ، وابنَته ، وامرأته ، ومن تجب عليه نفقته ، وهل أوجبَ نفقتي على الإنسان إلا لحمي ؟ فإذا استحقَّ له ؛ فلعمري ! ما ينبغي لي أن أزعم : أنَّه ظلمني اللَّحم إلا إذا أقررت على نفسي بُدِّيًا[1] أنِّي أنا ظلمتُه العَلفَ ، وسرقتُه منه .

كلُّ حيٍّ فإنَّما هو شيءٌ للحياة أعطيَها على شرطها . وشرطُها أن تنتهي ، فسعادته في أن يعرف هذا ، ويقرِّرَ نفسه عليه ، حتَّى يستيقنَه . كما يستيقنُ أنَّ المطر أوَّل فصل الكلأ الأخضر ، فإذا فعل ذلك ، وأيقن ، واطمأنَّ ؛ جاءت النِّهاية متمِّمةً له ، لا ناقصةً إيَّاه ، وجرتْ مع العمر مجرًى واحداً ، وكأن قد عرفها ، وأعَدَّ لها ، أمَّا إذا حسب الحيُّ : أنَّه شيءٌ في الحياة ، وقد أعطيَها على شرطه هو ، من تَوهُّم الطَّمع في البقاء ، والنَّعيم ، فكلُّ شقاء الحيِّ في وهمه ذاك ، وفي عمله على هذا الوهم ؛ إذ لا تكون النِّهاية حينئذٍ في مجيئها إلا كالعقوبة أنزلت بالعمر كلِّه . وتجيءُ هادمةً منغِّصةً ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبِقَها آلامُها ، فتُؤلِمَ قبل أن تجيء ، شرَّاً ممَّا تؤلم حين تجيء .

لقد كان جدِّي والله ! حكيماً يوم قال لي : إنَّ الَّذي يعيش مترقِّباً النِّهاية يعيش مُعِدَّاً لها ، فإن كان مُعِدَّاً لها ؛ عاش راضياً بها ؛ فإنْ عاش راضياً بها ؛ كان عمرَه في حاضرٍ مستمرٍّ ، كأنَّه في ساعةٍ واحدةٍ يشهد أوَّلها ، ويُحسُّ آخرها ، فلا يستطيع الزَّمن أن ينغِّص عليه ما دام ينقادُ معه ، وينسجم فيه ، غيرَ محاوِلٍ في الليل أن يُبْعِد الصُّبح ، ولا في الصُّبح أن يُبعد اللَّيل .

قال لي جدِّي : والإنسانُ وحده هو التَّعِس الَّذي يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقى شقاء الكبش الأخرق[2] ؛ الذي يريد أن يطرد اللَّيل ، فيبيت ينطح الظلمةَ المُتدجِّية على الأرض ، وهو لحمقه يظنُّ : أنَّه ينطح اللَّيل بقرنيه ، ويزحزِحُه . . . !

وكم قال لي ذلك الجدُّ الحكيم ؛ وهو يعظني : إنَّ الحيوانَ منَّا إذا جمع على نفسه همَّاً واحداً ، صار بهذا الهمِّ إنساناً تَعِساً ، شقيَّاً ، يُعطَى الحياةَ ، فيقلبُها بنفسه

---

(١) « بدياً » : لا محالة ، ولا مفر .

(٢) « الأخرق » : الأحمق .

على نفسه شيئاً كالموت ، أو موتاً بلا شيء . . . !

* * *

وتحرَّك الصَّغير من نومه ، فقال له الكبش : إنَّه ليقع في قلبي : أنَّك الساعة كنت في شأنٍ عظيم ، فما بالك منتفخاً ، وأنت هاهنا في المنحَر لا في المرعَى !

قال الصَّغير : يا أخا جدِّي !.. لقد تحقَّقتُ : أنَّك هَرِمتَ ، وخرفتَ ، وأصبحت تمُج اللُّعابَ والرَّأي . . . !

قال الكبش : فما ذاك ويلك ؟!

قال : إنَّك قلتَ : إنَّ هذا الإنسان غاد علينا بالشَّفْرة البيضاء ، ووصفت الذَّبح ، والسَّلخ ، والأكل ؛ وأنا السَّاعة قد نمتُ ، فرأيتُ فيما أرى ، أنَّني نطحتُ ذلك الرَّجل ؛ الذي جاء بنا إلى هنا ، وهِجْتُ به ؛ حتَّى صرعتُه ، ثمَّ إنِّي أخذتُ الشَّفرةَ بأسناني ، فثلمتُه في نحره ؛ حتَّى ذبحته ، ثم افتلذْت[(١)] منه مُضغةً[(٢)] ، فلكتُها في فمي ، فما عرفتُ والله فيما عرفتُ لَخناً[(٣)] ، ولا عَفناً في الكلأ هو أقبحُ مذاقاً منه !

إنَّ الإنسان يستطيبُ لَحْمَنَا ، ويتغذَّى بنا ، ويعيش علينا ؛ فما أسعدَنا أن نكون لغيرنا فائدةً ، وحياةً ، وإذا كان الفناءُ سعادةً نُعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا ، وما هلاكُ الحيِّ لقاء منفعةٍ له ، أو منفعة منه إلا انطلاقُ الحقيقة الَّتي جعلته حيَّاً صارت حرَّةً ، فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها .

قال الكبير : لقد صدقت والله ! ونحن بهذا أعقل ، وأشرف من الإنسان ، فإنَّه يقضي العمر آخذاً لنفسه ، متكالباً على حظِّها ، ولا يُعطي منها إلا بالقهر ، والغلبة ، والخوف . تعال أيها الذَّابح ! تعال خذ هذا اللَّحم ، وهذا الشَّحم ، تعال أيُّها الإنسان ؛ لنعطيك ! تعال أيُّها الشَّحَّاذ . . . . . . !

* * *

---

(١) « افتلذت » : اقتطعت .

(٢) « مضغة » : قطعة اللحم التي هي قدر ما يُمْضَغ .

(٣) « لخناً » : نَتَناً .